الأنا والآخر من الذات إلى التفاعل والحوار

أ.سعيد عادل بعناس
جامعة الجزائر 3

مقدّمتي

إذا كان الفرد يتميز بشخصيته التي تشعره بذاته ،أو بأناه أو بهويته فإن ذلك الشعور لن يكون ذا معنى من دون الآخر أو الغير الذي نتعرف من خلاله على الأنا في سياق التفاعل الذي عرف أشكالا مختلفة باختلاف تواصل الإنسان مع الآخرين صراعا أو حوارا في نطاق تجاذبات مختلفة و اهتمامات متعددة ورغبات في السيطرة والتفوق ونشر القيم ،التي حملها التاريخ عن حضارات بائدة أو أمم زائلة أو دول سائدة ،بيد أن الثورة التكنولوجية الحديثة جسدت التفاعل أكثر حيث جعلت الأنا أقرب ما تكون من الآخرين بات ضروريا في وجود الآخر بل وفي تعريفه ليتحول مجرد التعارف إلى حوار وتفاعل فكيف يمكن أن نعرف الأنا و الآخر وما طبيعة العلاقة بينهما؟

لمعالجة هذه الإشكالية نتطرق إلى النقاط الآتية :

1-مفهوم الأنا.

2- مفهوم الآخر.

3-تفاعل الأنا و الآخر.

1-مفهوم الأنا يعدّ الأنا le moi أولى مراحل الشعور حين يحس الفرد بأنه مختلف عن محيطه كما يكون تمييزه من خلال الآخر . سواء تعلق بالإنسان أو بغيره من المخلوقات إنه شعور فطري يرتبط بالحياة والبقاء(سهيل، 2002) وعند البحث في مختلف القواميس العربية نجد "

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

أنا " ترتبط صرفيا بضمير المتكلم المنفصل وهو بالمقابل " je " بالفرنسية و " I " بالانجليزية ، ما يحيلنا إلى البحث في بعدها الفلسفي . فالأنا فلسفيا يشار إليها بالفرنسية ego وهو مفهوم يدل على ذات الأفعال المتعمدة ، أي الأفعال التي تأخذها الشخصية بالحسبان وتتحمل مسؤوليتها(مسلم،2009).

يُشكل الأنا البنية الداخلية التي ترافق الفرد طيلة الطفولة وتساعده على التقمصات المختلفة المعبرة التي تسمح له بالإدماج التدريجي لصور الذات وبالنسبة لإريكسون Erikson فالذات soi تأتي مرادفة لـ أنا " je " وبالتالي فهوية الذات " identité de soi " تنبثق من التجارب التي تصبح الذوات المضطربة فيها مؤقتا مندمجة بنجاح في مجموعة أدوار تضمن لها اعترافا اجتماعيا(مسلم،2009).

وهكذا يمكن أن نؤكد بان تكوين الهوية يتجاوب مع الجانبين : الجانب الأول : الذات " soi" والجانب الثاني الأنا " moi " وتتم عملية التكوين تحت مراقبة الأنا الذي يمثل المركز المعتمد على الذات المتغيرة ويُعرّف القاموس النفسي الذات بـ " هي الفرد كما يعتبر شاعرا بهويته المستمرة الخاصة ، وبعلاقته بالبيئة (أبوزيد، 1987).

أّما عماد الدين محمد إسماعيل فيرى أن مفهوم الذات: "هو ذلك المفهوم الذي يكونه الفرد عن نفسه باعتباره كائنا بيولوجيا اجتماعيا ، أي باعتباره مصدرا للتأثير والتأثر، وهو ذلك التنظيم الإدراكي الانفعالي، الذي يتضمن استجابات الفرد نحو نفسه ككل (حربي، 2012).

وهناك من وضع للذات كمفهوم ثلاثة أبعاد أو مفاهيم جزئية : فهناك مفهوم :الذات العام ويتجسد حين يعبر الشخص عن نفسه ، وتتفرع عنه

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الذات الواقعية وتشمل المدركات والتصورات،والذات الاجتماعية وفيها المدركات التي نعتقد أن الآخرين يتصورونها.

وهناك : مفهوم الذات المكبوت ويشمل أفكار الفرد المهددة لذاته ، وهو مكبوت في اللاّشعور يحتاج إلى التحليل النفسي للوصول إليه.

وأخيرا مفهوم الذات الخاص :ويُعدّ من أخطر المستويات حيث يمثل الجزء الشعوري السري من خبرات الذات المحرمة أو الخجلة ، تعمل الذات على الحيلولة دون بروز.

تشكل الذّاتي يرى الأستاذ سليمان صالح في كتابه وسائل الإعلام وصناعة الصور الذهنية أنّ الذّات تتشكل بسمات الخير والطيبة والدفاع عن قضية عادلة وكذا الكفاح ضد الشر والأشرار والعمل من أجل نشر الحضارة وقيمها الإنسانية، ولتشكيل هذه الصور الإيجابية يركز الخطاب الرسمي على ذلك الجانح للسلم قبل الحرب لكن تفاقم الأمور تلبس الذات ثوب الدفاع عن الوطن وتصبح الحرب عادلة ، ثم يتحول الأمر لتمجيد الذات من خلال صفات عرقية كالمهمة الحضارية التاريخية للرجل الأبيض في فترة الاستعمار أو الحرية والديمقراطية ثم التقدم والرفاهية كما هو الشأن في حربي أفغانستان والعراق(صالح، 2005).

وهنا يقوم الإعلام بدوره للحفاظ على وجه البطولة والحضارة فتحتجب صور المذابح والأشلاء ويظهر الإسرائيليون مدافعين عن النفس، وحتى القنابل فهي أنيقة دقيقة لا تقتل البشر في العراق وأفغانستان، بل أن القيادة لها الكفاءة والعبقرية التي تستمر بعد الانتصار الذي لم يكن سهلا بل جاء بتضحيات كبيرة(صالح،2005) .

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الذات الثقافية:إنّ علاقة الأنا بالآخر تُطرح كثيرا في الموضوعات الثقافية ، وإذا اُتفق على أن إدراك الذات لنفسها ضروري قبل أي حوار مع الآخر إلاّ أنّ هذه الذات تفرض في دراستها – في مجال الحوار – أن تدرس بشقيها الذات الفردية والذات الثقافية أو ذات الأمة ، فالذات الفردية لدى الإنسان كيان وتنظيم وتركيب معا ، تقوم بوظيفة الموحد للخبرات الإنسانية عند الفرد من جهة وبوظيفة مركز أنشطة الجسم الخارجية غالبا إذ لا تدرك هذه الذات إلا عبر ما تقوم به من أنشطة كونها مركز العمليات الفكرية من وعي وفكر ، وهي أيضا من يجمع وينظم ويقرر ويحاسب ويوجه، تحمل الذاكرة والخطة مقامها فوق الذهن والجسم ما يجعلها الإنسان الحقيقي(قرني، 2004).

–في حين تقوم الذات الثقافية الممثلة لذات الأمة بما تقوم به ذات الفرد بيد أنها غير محددة كحال الذات الفردية التي تنتهي في ذهن الإنسان.

إنّ الذات الثقافية تتعدد مواقعها وكثيرا ما تنقسم أكثر مما يحدث لدى الأولى ، وإذا كانت ذات الفرد تنشأ لدى الإنسان بجسمه وذهنه فإنّ ذات الأمة من جهتها تنشأ في الأمة بأعضائها البشرية وتصوراتها أو أنها ذات المجموعة وما يميزها من ثقافة(قرني 2004).

أّما تكّون الذات الثقافية فيكون بانبثاق أمة جديدة عن أمة سابقة انتهت بانتهاء قوانين الحياة التي يمر بها الإنسان من ولادة وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة ثم ممات..

ومنبع ذات الأمة الحياة والأرض المشتركة والتجمع المقصود والمصالح والتنظيم التلقائي،وتكّون ذات الأمة يتم عبر الزمان يتراكم بشكل تصاعدي وهنا يظهر دور الثقافة المركزي وكأنها حاكم يمثل محور التجمع وتقاطع المصالح ، وتكون الذات يأخذ وقتا ومثال ذلك:

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الأمة الإسلامية التقليدية أي حين كان لها دول أو دولة تعبر عنها من حيث هي أّمة ، عكس الحال هذه الأيام، وثقافتها خير مثال فقد ولدت مع الهجرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين ومضت طفولتها مع الدولة الأموية وبلغت سن البلوغ والنضج مع الدولة العباسية وابتداء من عصر التدوين(قرني، 2004).

وتكون الأمة بذاتها الجديدة في الأمام لا في الخلف ، نتطلع إليها مختلفة في تكوينها وصفاتها وأهدافها وقدراتها على الانتماء السابق لأمة نعيش في بقايا ثقافتها ، وهذه الجدة ترتبط بالبنيوية حيث المهم هو إعادة تنظيم الموقف مع إضافة عناصر جديدة تعطى لها الأولوية ومثال ذلك الحضارة الأوروبيين، حيث انتقل الأوروبيون من عناصر سابقة في حضارة القرون الوسطى المسيحية على نحو ما سموه فيما بعد ألا وهي عناصر الديانة واللغات الشعبية والشعوب الأوروبية ليعيدوا تنظيم ثقافتهم الجديدة ولتظهر تجمعات سكانية ضخمة في شعوب جديدة ، وليكتمل نضج اللغات التي ستصير لغات أوربا اليوم. ولكن كل ذلك إنما يتم بإدخال روح جديدة من الأفكار والتوجيهات والقواعد و التفضيلات والمقدرات ، وهي روح الثقافة الغربية إلى اليوم وفي مقدمتها النزعة الفردية الذرية والتأكيد على الحرية المطلقة وعلى حقيقة العالم الأرضي وأهميته الجوهرية ، لكي ينعكس كل ذلك بإنشاء تصورات دينية جديدة ، وجدولة جديدة ، وعلم جديد، وفكر جديد ، واقتصاد جديد (قرني،2005).

ويتنقل تعريف الأنا تصاعديا منطلقا من الوطن اتجاه العروبة والإسلام والشرقية ، والأنا بهذا المعنى سواء صغرت نحو معناها الأول أو كبرت تعد " أنا" حضارية كّونت حضارات قديمة عرفت ازدهارها في الشرق ، بمصر ،بلاد الرافدين، الهند ، فارس والصين، جامعةً بين البناء الحضاري

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

المدني التقني وبين البناء الأخلاقي الديني فكانت ابتداء حضارات تقوم على احترام الآخر بقدر احترام الذات من دون تمييز بين البشر ورغم الحروب التي وقعت بينها إلا أنها لم تُفض إلى استبعاد الآخر ، أو تمجيد الذات بنفي الآخر واحتقاره ، لم تبتدئ بالعدوان وإنما حرصت على حسن الجوار والتعاون مع مختلف البشر(النشار،2007).

لمحة مفهوم الآخر: يعرف الآخر بالفرنسية Autre التي أصلها لاتيني Alterوقد ورد في قاموس le robert إن الآخر هو" اللاّ أنا " ويرى جون بول سارتر " إنّه الذي لا تستغني عنه الأنا(la rousse 2012) .

وحاولت جوليا كرستفيا Julia Kristevia والأستاذة بجامعة باريس أن تعطي تعريفا للآخر في كتابها strangers to ourslves : وذلك عبر تمييزه عن الأنا: " أولا يستشعر الفرد خصوصيته، تلك الشفاه،عظام الوجنتين، تلك البشرة المختلفة عما لدى الآخرين ، كل ذلك يميزه ويذكره بوجود شخص ما هناك (صالح بريك، 2007).

ويعتبر السيد يسن " الآخر " من الموضوعات الهامة التي واكبت تدفق العولمة فالآخر إمّا أن يكون فردا مختلفا أو مجتمعا مختلفا أو ثقافة مختلفة وهنا تتدافع أسئلة عن الدوافع التي شوهت صورة الآخر كائنا من كان وأية أساليب كفيلة بتكوين صورة موضوعية عن الآخر تتجاوز الصورة النمطية(يسن، 2002).

ويحمل الآخر فيما يعنيه معنيين أحدهما إيجابي والثاني سلبي، وبتلخيص لمفكرين غربيين فرنسيين تحديدا مثل " سارتر ، فوكو و جاك لاكان " فإنّ الآخر في أكثر معانيه شيوعا يدل على شخص آخر أو مجموعة مختلفة من البشر ذات هوية مشتركة ، وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة يتحدد الاختلاف معه ، وفي مثل هذه الضدية

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر ، وإعلاء قيمة الذات أو الهوية ، ويشيع مثل هذا الطرح في تقابل الثقافات خاصة، أّما المعنى الايجابي فيتحدد في النظر إلى الآخر بعيدا عن التسميات والصفات والألقاب غير المفضلة والتي يرفضها هذا الطرف متصورا إياها ابتزازا أو قدحا إذ يأتي وصف الآخر متجردا متعاليا متنزها عن أوصاف تقلل من شانه(الميلاد،2009).

ويرتبط مفهوم الآخر بالغربي بدءا من صانع الحضارة اليونانية القديمة إلى غاية صانع المدينة الأوروبية والأمريكية في عالم اليوم(النشار،2007) **الآخر ثقافيا** الآخر ليس نحن ، هو الذي أو هي التي يعتبر مختلفا عن الأنا ، إذن هو مختلف لكن يشاركنا في إطار التنوع ، فإذا كان كل منا له خصوصياته فإننا نتقاسم كل النقــاط المشتركة:

- فنحن نعيش في عالم واحد.
- لنا حاجات متشابهة.
- نريد أن نعيش في سعادة.
- لنا الرغبة في العيش المشترك.

فالتماثل ينطلق مما يجمعنا مع الآخر ثم يستقبل التنوع ويتيح التبادل يتعين اخذ الآخر كذات عينها ، والحوار يعطي حجة للفهم اخذين في الحسبان خصوصية مثل ما لنا خصوصيتنا لكن العلاقة لها الفرصة للاقتراب أكثر فأكثر (monde2013).

إنّ الثقافة التي تقوم على التسامح ، والمعرفة معرفة الآخر قبل أن تلقاه هي المطلوبة لأنّ الإنسانية تجمعنا بدل النعرات الجهوية والانتماءات العرقية مثلما أبدى cravan "كرفان" في كتابه " inter culturalités " إن لدينا ميلا صوب نسيان أنّ الثقافات يمكنها أن

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

تتجذر في عديد الحضارات وأنها نتيجة للإخصاب المتبادل ، وإننا ثمرة تعدد الثقافات التي لا تتوقف عن التأثير منذ أن بدا الناس في الالتقاء والتبادل (monde2013) .

إن الآخر ثقافيا جوهر كل آخر فهو مصدر هذه الثقافة ، ومستقبلها ، والمتفاعل معها إنّه يتجاوز حدود المجتمع نحو الفكر ثم إنّه يجعل الفكر أكثر خصوبة وعطاء ، فالاختلاف سُنّة إلهية جُبلنا عليها ، في الأصل ، واللسان والثقافة فالاعتراف بالآخر يبدأ من احترامه واحترام ثقافته.

ب-التفاعل الأنا والآخر

يظهر تفاعل الأنا مع الآخر من خلال المشاعر المتبادلة بشكل عميق وهو العمق الذي يسميه الفيلسوف اليوناني أرسطو بالاستعداد، كما نجده لدى الفيلسوف الألماني كانط (Gesinnung) ليعبر كذلك عن العاطفة ، فما يحدثه ألم الآخر أو ما يسمى أمرا أخلاقيا آتيا من الآخر داخل الذات هو مشاعر تنطلق عفويا نحو الآخر، ثمة مجموعة مواقف بين الطرفين الأنا والآخر فالأول يتحمل نوعا من المسؤولية لما يبادر الثاني كما يتعاطف معه حين تبادر الذات المحبة وربما تشكل الصداقة وسطا إذا تقاسمت الذات والآخر الرغبة في العيش معا وهذا يمكن الافتراض المساواة مسبقا أما حين يبادر الآخر فان هذه المساواة لا تحدث إلا إذا اعترفت الذات بتفوق الآخر(ريكور 2005).

إنّ هذا التفاعل يجعل الذات تدرك نفسها كآخر بين الآخرين وهو ما يسميه أرسطو " بالواحد الآخر alloues " ، فحين نقول لشخص آخر " أنت " فهو يدركها " أنا " بالنسبة إليه ، بمعنى أن الخطاب الموجه بصيغة المخاطب يفهم لدى الآخر بصيغة المتكلم(ريكور 2005).

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

إنّ هذا الجدل بين الأنا والآخر لا يُصوّر دائما على إنّه صراع كما رمت إليه النظريات التي سارت في هذا الاتجاه ولكنه إدراك للذات من خلال الآخر ، مثلما تبرزه العملية الاتصالية التي يتحول فيها المرسل إلى متلق والعكس.

فالتفاعل بين الأنا والآخر يؤكّد التبادل الفكري الذي يصل إلى معرفة كل طرف للآخر معرفة حقيقية تعكس القواسم المشتركة فيما فيه الخير للبشرية لاسيما مع دخول جيل جديد من حقوق الإنسان في الأجندة الدولية وبات الحديث عن التنمية المستدامة أولوية الخطاب العالمي، وأصبح الحق في الاتصال بديهية تنبض بها القرية الكونية حبى وإن أرادت بعض القوانين إغفالها أو حتى منعها، ليُصبح الحوار بين الأنا والآخر حقيقة عملية في العالم الافتراضي الذي أكّد إعلام المواطن ولم يعد للحدود أي معنى أمام انحسار مفهوم السيادة فيتم بذلك التبادل الثقافي ويتم الحوار الحضاري في عالم لم يعد يعيش المعرفة فقط بجانبها العلمي ولكن بصورتها الإنسانية فالآخر ضروري للأنا و الأنا ضرورية للآخر في سياق هوية عالمية.

خاتمة:

نخلص في الأخير إلى أنّ الجدلية التي تربط الأنا بالآخر ضرورة اقتضتها السّنة الكونية فالاختلاف سبب من أسباب الخليقة ومؤشر على بقائها حتى وإن وصلت إلى درجة الصراع

فهو من دلائل التنافس ومحاولة إثبات الذات الّتي شهدها التاريخ أحقاباً طويلة، بطرق مختلفة ولو أنّها في عديد المرات وصلت إلى حدّ الصدام والحروب، لكن ما تعانيه البشرية بشكل يهدد الأجيال القادمة يجعل إنكار كلّ من الأنا و الآخر لذاته أكثر من ضرورة في سبيل حوار

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

يهدف إلى تبادل الأفكار وإيجاد الحلول لمختلف المشكلات التي تتربص بالبشّرية سواء سياسية مثلما تفعله إسرائيل ومن خلفها الغرب في فلسطين، أو بيئية كظاهرة الاحتباس الحراري، أو تنموية من خلال إعمال التنمية المستدامة تطبيقاً لا نصاً فقط، وغير ذلك.

المراجع

Mehdi m birich. Le moi l'autre et la problématique du dialogue. Du dialogue culturel euro- arab escigen ces l perspectives . conférence pour le dialogues des cultures paris 15-16 juillet 2002.

- إذا عرفت فهي تعني الأنا فلسفيا le je : مثل . le moi سهيل إدريس ، المنهل بيروت . دار الآداب ط 2007/37

- مصطفى حسيبة . المعجم الفلسفي : عمان .دار أسامة ، الطبعة الأولى 2009 ص103

- محمد مسلم . الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا. الجزائر . دار قرطبة . الطبعة الأولى 2009 ص ص 106، 107 - إبراهيم أبو زيد ، سيكولوجية الذات والتوافق . الإسكندرية .دار المعرفة الجامعية .1987 ص 76

- عماد الدين محمد إسماعيل ، النمو في مرحلة المراهقة . الكويت . دار القلم . 1981 ص 19

- حربي سليم ، دراسة مفهوم الذات لدى الرياضي المعوق حركيا . أطروحة دكتوراه غير منشورة .جامعة الجزائر. معهد التربية البدنية والرياضية 2012/2011 ص ص 83،84

- سليمان صالح . وسائل الإعلام وصناعة الصور الذهنية . الكويت مكتبة الفلاح 2005 ص ص 61،62

- عزت قرني . الذات الثقافية الجديدة . في استشراف المستقبل المؤتمر " العلمي التاسع " بجامعة فيلادلفيا 2004 ص 94 .

- مصطفى النشار . في فلسفة الحضارة . جدل الأنا والآخر .القاهرة . دار قباء ط1 2007 ص 47.

.- paris.2013.p.189. le petit robert. Sejer

- السيد يسن . حوار الحضارات . الغرب الكوني والشرق المتفرد . الطبعة الأولى . القاهرة .ميريت .2002 ص 24.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

- زكي الميلاد. مفهوم الآخر بين المعنى الايجابي والمعنى السلبي ، في جريدة عكاظ عدد 2867 ، 23 افريل 2009 ص 14 .

Monde entête . projet d éducation Canadian. Agence canadienne. De développement international 2013 . p 16..

- بوالي ريكور . الذات فيها كآخر ترجمة جورج ريناني . بيروت مركز دراسات الوحدة العربية . الطبعة الأولى 2005

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)